فى كتاب ابن الرومى

للاستاذ عباس محمود العقاد

بقلم الأستاذ مصطفى جواد [بغداد]

سمعنا عن هذا الكتاب كثيراً فى الصحف والمجال والمجالس من مدح وقدح وانتقاد ، مما شوقنا إلى تصفحه والمرور بما فيه ، ولقد ألفيناه كتاباً جيداً شاملا متعوباً به منصوباً لأجله ، معلناً فضل صاحبه ، وهو بعد تأليف من التآليف البشرية والجهود الانسانية ، فيه المليح والقبيح ، والصحيح وغير الصحيح ؛ ومن ثم كان لنا فيه آراء وتعقيب : من استدراك فائت ، وإتمام ناقص ، وترجيح شيء على مرجوحه ، ونقض رأى برأى ، وإصلاح وهم لغوى ، وتصحيح غلط نحوى ؛ ولا شك أن مؤلفه الأستاذ أرحب صدراً من أن يضيق بالحقائق ، وأهدأ من أن يغتاظ من الاصلاح ، وأسرع من غيره إلى وقف القراء على ما لم يقفوا عليه من مقاصده . وأول ما نبدأ به كلمة على « ابن الرومى » مما لم يظفر به المؤلف من المصادر :

قال محمد باقر — مؤلف كتاب روضات الجنات — عنه : « الشاعر الباهر الماهر المشهور أبو الحسن على بن العباس بن جريج البغدادى المشتهر بابن الرومى كان — كما ذكره الصفدى — فى ذيل تاريخ ابن خلكان شاعر وقته ببغداد ، مذكوراً فى مقابلة ابن البخترى الأستاذ ! وكان أصلع أسمج ، شديد التطير ، منهوماً فى الأكل جعلباً ، فكان يغلق أبوابه ! ولا يخرج إلى أحد خوفاً من التطير ، فأراد بعض أصحابه أن يحضر إليهم فى يوم أنس ، فبعثوا إليه غلاماً نظيفاً اسمه « إقبال » ، فقال : « إقبال مقلوب لا بقاء » ، ودخل وأغلق الباب ؛ وكان كثير الهجاء للأخفش الصغير على بن سليمان — المتقدم ذكره — فى ذيل ترجمة أول الأخافشة . . . وذلك أنه لما كان كثير الطيرة ، وكان الأخفش كثير المزاح ، فكان يباكره قبل كل أحد ، ويطرق الباب عليه فيقول : من بالباب ؟ فيقول : الأخفش حرب بن مقاتل ، وما أشبه ذلك ، فقال له : اختر على أى قافية تريد أن أهجوك ؟ فقال : على روى قصيدة دعبل الشينية ، فقال :

ألا قل لنحويك الأخفش ... أنست فقصر ولا توحش
وما كنت عن نية مقصراً ... وأشلاء أمك لم تنبش
أما والقريض ونقاده ... ونجشك فيه مع النجش
ودعواك عرفان نقاده ... بفضل النقى على الأنجش

لئن جئت ذا بشر حالك لقد جئت ذا نشأ أبرش
وما واحد جاء من أمة بأعجب من ناقد أخفش
كأن سنا الشتم فى عرضه سنا الفجر فى السحر الأغبش
أقول وقد جاءنى إنه ينوش هجاى مع النوش
إذا أغطش الدهر أحكامه سطا أضعف القوم بالأبطش
وما كل من أخفشت أمه تعرض للقذع الأخفش

وهى طويلة ، فلما سار هجاؤه جمع أصحابه ، وكان له جماعة أصحاب من الرؤساء ودخلوا على « ابن الرومى » فكف عن هجائه ، وسألوه أن يمدحه ، فقال :

ذكر الأخفش القديم فقلنا : إن للأخفش الحديث لفضلا
وإذا ماحكمت والروم قومى فى كلام معرب كان عدلا

إلى آخر القصيدة ، وقال ـ أيضاً ـ بعد إيراده فقرات بليغة فى بيان تملكه لأزمة المعانى ، وتسلطه على إيراد المطلب الواحد فى أثواب من الألفاظ والمبانى : ولقد بالغ ابن سناء الملك حيث أجاب القاضى الفاضل ، وقد أمره باختيار شعر « ابن الرومى » ، فقال : « وأما ما أمر به فى شعر ابن الرومى ، فما المملوك أهل لاختياره ، ولا من الغواصين الذين يستخرجون الدر من بحاره ، لأن بحاره زخارة ، وأسوده زآرة ، ومعدن تبره مردوم بالحجارة ، وعلى كل عقيلة منه ألف نقاب ، بل ألف ستارة ، يطمع ، ويؤيس ، ويوحش ، ويؤنس ، وينير ، وينظم ، ويضحى ، وينيم ، شذرة ، وبعرة ، ودرة ، وآجرة ، وقبلة بجانبها السبة ، وحرة بجوارها قحبة ، ووردة قد حف بها الشوك ، وبراعة قد غطى عليها النوك ، لا يصل الاختيار إلى الرطبة حتى ينجرح بالسلا ، ولا يقول عاشقها : هذه الملح قد أقبلت حتى يرى الحسن قد تولى ، فما المملوك من جهابذته ، وكيف وقد تفلس فيه الوزير ؟ ولا من صيارفته ونقاده ، ولو اختاره جرير لأعياه تمييز الخيش من الوشى ، والوبر من الحرير » . حكى عن ابن رشيق وغيره أن لأعمى لام ابن الرومى ، فقال له : « لم لا تشبه كتشبيهات ابن المعتز وأنت أشعر منه ؟ » ، قال له : « أنشدنى شيئاً من قوله الذى استعجزتنى فى مثله ، فأنشده قوله فى الهلال :

وانظر إليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر

فقال : زدنى ، فأنشده :

كأن أذرعها والشمس فيها كاليه
مداهن من ذهب فيها بقايا غاليه

فصاح : « واغوثاه ! لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، ذاك إنما يصف ما عون بيته ، لأنه

ابن خليفة ، وأنا أى شىء أصف ؟ ولكن انظر إذا أنا وصفت فما أعرف أين يقع قولى من الناس ؟ هل لأحد قط مثل قولى فى الغمام ؟ :

وساق صبيح للصبوح دعوته ... فقام وفى أجفانه سنة الغمض
يطوف بكاسات العقار كأنجم ... فمن بين منقض علينا ومنفض
وقد نشرت أيدى الجنوب مطارفاً ... على الجو دكناً والحواشى على الأرض
يطرزها قوس السحاب بأخضر ... على أحمر فى أصفر فوق مبيض
كأذيال خود أقبلت فى غلائل ... مصبغة والبعض أقصر من بعض[1]

وقولى فى صانع الرقاق :

لا أنس لا أنس خبازاً مررت به ... يدحو الرقاقة مثل اللمح بالبصر
ما بين رؤيتها فى كفه كرة ... وبين رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح دائرة ... فى صفحة الماء يلقى فيه بالحجر

انتهى . وتوفى ابن الرومى فى حدود « التسعين والمائتين » ، ونقل فى سبب موته ، أن الوزير أبا الحسن القاسم بن عبيد الله خاف هجوه وفلتات لسانه بالفحش ، فدس عليه ابن فراس فأطعمه خشكنانجة مسمومة وهو فى مجلسه ، فلما أكلها أحس بالسم فقام ، فقال له الوزير : « إلى أين تذهب ؟ » ، فقال : إلى الموضع الذى بعثتنى إليه . . . وأتى منزله وأقام به أياماً ومات ؛ ونقل الفاضل الصفدى أيضاً فى كتابه الوافى عن على بن عبد الله بن وصيف المشتهر بأبى الحسين الحلاء الناشىء الأكبر [2] (وكان من متكلمى الشيعة الامامية الفضلاء ، وله شعر مدون ، وروى عن ابن المعتز والمبرد ، وروى عنه ابن فارس اللغوى وعبد الله بن أحمد ابن محمد بن روزبه الهمذانى وغيرهما) ، أنه قال : « كان ابن الرومى يجلس فى دكان أبى وهو عطار ، ويلبس الدراعة ، وثيابه وسخة ، وأنا لا أعرفه ، فانقطع مدة ، فسألت أبى عنه : ما فعل ذلك الشيخ ؟ فقال : ويلك ! ذاك ابن الرومى وقد مات ، فندمت إذ لم أكن أخذت عنه شيئاً[3].

وقال أبو بكر الخطيب فى تاريخ بغداد : « على بن العباس بن جريج أبو الحسن مولى عبيد الله بن عيسى بن جعفر ، يعرف بابن الرومى أحد الشعراء المكثرين المجودين فى الغزل والمديح والهجاء والأوصاف ، روى عنه غير واحد من أهل الأدب ، أخبرنى أبو عبد الله الحسين ابن محمد بن جعفر الخالع ، أخبرنى أبو الحسين على بن جعفر الحمدانى ، قال : « كنت

(١) قال ابن خلكان فى ترجمة سيف الدولة على الحمدانى ونسب الابيات اليه ما صورته « وقيل : ان هذه الابيات لابى العنبر القيسى والاول ذكره الثعالبى فى كتاب يتيمة الدهر . . . وهذا من التشبيهات الملوكية التى لا يكاد يحضر مثلها للسوقة » الوفيات ١ : ٤٠٠ وهو قول لا يتوجه لوجه مقبول لان كاسات العقار والخود الرود كانت سهلة الظفر على الشعراء اما ملكا واما وليمة (٢) كذا ما فى الاصل وهو الاصغر كما علمنا من الوفيات ١ : ٣٨٩ (٣) روضات الجنات ص ٤٧٣ .

فى غلمان دار القاسم بن عبيد الله الوزير (١) ، فدخل القاسم يوماً داره راجعاً من ركوبه ، وكان فى جملة حاشيته حينئذ رجل أراه يدخل الدار كثيراً وينادم ، وكان متدرعاً متعمماً ، فالتفت القاسم إلى الرجل ، فقال له : يا أبا الحسن! امل الأبيات على كاتب يكتبها بخطه وهاتها، فأملى على كاتب كتب عنده ثلاث أبيات وهى :

ما أنس لا أنس خبازاً مررت به يدحو الرقاقة وشك اللمح بالبصر
ما بين رؤيتها فى كفه كرة وبين رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح دائحة فى حومة الماء يرمى فيه بالحجر

وقال للكاتب : « اكتب :تنداح دائحة وتندار دائرة » ، فسألت عنه لأعرفه ، فقيل لى : هذا ابن الرومى .

أخبرنا أبو يعلى أحمد بن عبد الواحد الوكيل . . . حدثنا الحسين ابن القاسم الكوكبى ، قال : أنشدنى على بن العباس الرومى لنفسه ، وكتب بها إلى بعض إخوانه ، وقد قدم من سفره فتأخر عن السلام عليه :

يا من أؤمل دون كل كريم وتحب نفسى دون كل حميم
أخرت تسليمى عليك كراهة لزحام من يلقاك للتسليم
وذكرت قسمتك التحفى بينهم عند التلقاء كفعل كل كريم
فنفست ذاك عليهم وأردته من دونهم وحدى بغير قسيم
فصبرت عنك إلى انحسار غمارهم والقلب نحوك دائم التحويم
صبر امرىء يعطى المودة حقها لا صبر مذموم الحفاظ لئيم
والسعى نحوك بعد ذاك فريضة عن طيب خيمك فهو أطيب خيم
ومتى استربت بخلة معوجة فتتبع العوجاء بالتقويم

أخبرنا هلال بن محمد بن جعفر الحفار ، حدثنا أبو القاسم اسماعيل بن على الخزاعى (وهو ابن أخى دعبل بن على) ، قال : أنشدنا على بن العباس بن جريج الرومى لنفسه :

ومهفهف نمت محاسنه حتى تجاوز منية النفس
ترنو الكؤوس إليه راشفة وتجول بين أنامل خمس
فكأنه والكأس فى يده قمر يقبل عارض الشمس

(لها بقية)

مصطفى جواد

(١) هو وزير أبى العباس أحمد المعتضد بالله بن طلحة الموفق وزير ابنه المكتفى توفى سنة ٢٩١ هـ وقيل هو الذى سم ابن الرومى بخشكنانجة (مروج الذهب ٢ : ٤٩٤ — ٥) من الطبعة المصرية ، قال المسعودى : « وكان عظيم الهيبة شديد الاقدام سفاكاً للدماء وكان الكبير والصغير على رعب منه لا يعرف أحد منهم لنفسه نسمة معه . . . وكان ممن قتل القاسم بن عبيد الله (عبد الواحد بن الموفق) وكان معتقلا عند مؤنس الخادم . فبعث اليه حتى أخذ برأسه وذلك فى أيام المكتفى » وذكره المسعودى أيضا فى ص ٤٨٦ و ٤٩٠ ـ ١ و ٥٠٦ وابن خلكان فى « ١ : ٣٨٧ » من الوفيات وياقوت الرومى فى معجم الادباء « ١ : ٤٨ و ٨٣ و ١٣٦ » والفخرى ص ١٩٠ ـ ١ والسيوطى وتاريخ الخلفاء ص ٣٨٧ وابن الاثير .